(٦) جيمس فينيمور كوبر : البرارى

بقلم : وليم هـ . جوتزمان

سواء كان يعلم النقاد المهذبون وعارضو الكتب فى الصحف هذه الحقيقة أم لا – فإن أهم حدث أدبى وقع فى عام ١٨٢٣ كان نشر كتاب الدكتور إدوين جيمس « وصف بعثة الاكتشاف من بيتسبرج إلى الجبال الصخرية فى السنوات ١٨١٩ ، ٢٠ ، ٢١ . . . » [١] وكان الدكتور جيمس عالم نبات فى نيويورك اصطحب ستيفن هـ . لونج أحد قادة جيش الولايات المتحدة فى عمليته العسكرية الضخمة التى قام فيها بمسح الحدود الشاسعة عبر غرب المسيسيبى الأمريكى بمجرد فتحه لقبائل الرحل من المستوطنين الذين أكملوا الزحف عبر القارة فى العقود المتتالية . ولم تكن بعثة الميجور لونج بمجيئها فى ذلك الوقت الاستراتيجى بعثة عسكرية تماماً . ولم يكن هدفه الرئيس يختلف هو وهدف رواد الفضاء الذين هبطوا على القمر فى عصرنا هذا : فقد كان يرسل بتقاريره إلى الأمة عن كل المزايا والمساوى والأخطار المتربصة به فى الأرض الجديدة .

وكانت مهمة دكتور جيمس تتمثل فى تنظيم مسودة الملاحظات العملية التى يدونها الميجور لونج . وفى توجيه مساعديه العلميين والعسكريين فى تسجيل الاكتشاف العلمى من خلال منهج دقيق . ولم يكن هناك سوى كتَّاب قلائل يملكون مادة درامية أكثر . وقد شمل سرد

دكتور جيمس جولات الميجور ورجاله عبر البرارى المنحدرة و بطول الضفاف المنكسرة المخيفة لنهر بلات إلى السلسلة الأمامية للجبال الصخرية ، ثم جنوباً بمحاذاة حائط الجبل ، ومروراً بقمة بايكس إلى الينبوع الملكى فى أعالى نهر أركنساس على حافة الحدود الإسبانية نفسها فى نيوميكسيكو .

فى تلك النقطة انقسم الفريق ، وذهبت مجموعة منه أسفل نهر أركنساس مباشرة عبر بقاع بوانى المعادية ، وشدت الأخرى الرحال جنوباً إلى النهر الكندى ظنًّا منها أنه النهر الأحمر (الذى يفصل تكساس عن أوكلاهوما الآن) . ثم شقت طريقها عائدة إلى نهر أركنساس وبالتأكيد إلى المسيسيبى بعد ذلك .

وفى أثناء الزحف مر المكتشفون خلال الأراضى الهندية بما فيها من بقاع خطرة مثل قرية بادهارتس (القلوب الشريرة) ، وعبر قطعان الجاموس المنتشرة على أميال عدة . وقد تسلق المكتشفون قمة بايكس لأول مرة وحملقوا بحيادية علمية فى التناقض الساحر الذى يميز السهول العالية ويشكل طبوغرافيتها . حيث تبرز رأس سكوت الصخرى من مكان غير محدد مثل السفينة فى البحر ، كما تشمخ صخرة كورتهاوس وغيرها من تلك التضاريس المهيبة الغريبة . لقد رأوا الأنهار التى شقت مجراها فجأة فى السهول المنحدرة ، والنيران العارمة فوق بحر العشب ، وتجمعات أشجار الصفصاف الكثيفة ، وأقزام الشجر فى قاع الأنهار التى أوجدت الواحات للهنود الرحل ، وكروس تميز تلك الغابة التى لا نجد سبباً لوجودها وسط هذه البرارى الصلعاء . وفوق كل هذا فقد أذهلتهم حقيقة أن هذه البلاد العجيبة لا تشبه شيئاً مثل تشابهها « بالصحراء الأمريكية العظمى » كانت بالنسبة لهم منظرا من مناظر القمر . وكان « مكتشف الممر الضائع » زيبلون بايك على حق عندما وصفها بعد عشر سنوات فى سرده الوصفى المنشور بأسلوب ينم عن الانبهار . وأى مستوطن يغامر خارج الغابات المعروفة فى وادى المسيسيبى عبر الخلاء اللانهائى والرهيب فى السهول العليا يكون قد ترك بكل تأكيدكل إمكانات الحضارة خلف ظهره . وفى رأيهم أنه قرر أن يدخل مشروع لايمكن أن يوصف إلا بأنه تيه كله حسرات !

وقد تتبع جيمس فينيمور كوبر مغامرات الميجور لونج من خلال سرد دكتور جيمس لها عندما قرأه فى أثناء إجازة له فى باريس . وبصفته من عشاق الأحلام والمغامرات التى أغرم بها أمثاله من الأرستقراطيين فى لقاءاتهم ، وبحكم أنه لم ير الغرب بنفسه على الإطلاق – فقد

ذهل كوبر بوضوح عندما أدرك الإمكانات التى تقدمها قصة دكتور جيمس لكاتب روائى مثله ، وخاصة أن الرواية الرومانسية كانت السائدة فى ذلك الوقت فى فرنسا . وكان كوبر قد اطلع بالفعل على صياغة نيكولاس بيديل لبعض كراسات لويس وكلارك ، ومن المحتمل جداً أن يكون قد قرأ وصف زيبلون بايك أيضاً بالدقة نفسها .

وباختصار فإنه واكب الأدب الأساس الذى بلور حركة الاتجاه غرباً ، بل إنه صادق هندياً أو اثنين ذكّراه بقايا ذلك العالم الضائع ذى الحرية البدائية التى خبرها من قبل فى ضيعة أبيه التى عرفت باسم أوتسيجو البارونية شمال نيويورك . وفى حياة أبيه حتى نهاية القرن الثامن عشر كانت قاعة أوتسيجو قد أقيمت من أخشاب الغابة حيث عاش الموهوكس الأشداء . والآن فقد تم ترويض البرية كما حدث قبل قرن من الزمان فى الشرق عندما طرد التطهريون (البيوريتان) قبائل البيكوت والموهيكان وغيرهم من القبائل الأخرى .

وعلى الرغم من أن كوبر كان بعيداً عنها بحكم وجوده فى باريس – فإن تجربة الحدود قد لمست أعماقه بصفة شخصية . لقد كانت بمثابة النغمة الرئيسة فى حياته بحيث طغت على شطحات خياله .

وعلى الرغم من وجود نغمة كشف الحدود بطريقة ما فإنه بالتأكيد فى كل كتبه روايات البحر ، وأعمال الحرب الثورية ، وسلسلة تشين بيرر ، وثلاثية ليتل بيج ، وأعمال اليوطوبيا الخيالية . وحتى فى كتبه الأوربية وأعماله التى تتخذ من النقد الاجتماعى مضموناً لها – فإن هذه النغمة قد أصبحت محوراً أساساً فى « قصص ليذرستوكنج » التى خلدت ذكراه أساساً .

وكانت « البرارى » التى كتبها كوبر فى عامى ١٨٢٦ - ١٨٢٧ فى باريس الكتاب الثالث فى ملحمة « ليذر ستوكنج » التى سجلت مغامرات ناتى بامبو صائد الغابات ورجل الحدود الذى يشبه دانيال بون والذى خلده جون فينمور كوبر فى السيرة التى كتبها عام ١٧٨٤ . وكان من الواضح أن « البرارى » ستكون الجزء الثالث والأخير من ثلاثية أقيم بناؤها بفن متقن . وكان الجزء الأول بعنوان « الرواد » قد نشره كوبر عام ١٨٢٣ . وقدم فيه ناتى بامبو فى دور « دير سلاير » أو « ذابح الغزال » ، وهو رجل عجوز نسبياً قام بذبح غزال فى ضيعة القاضى مارمادبوك تمبل فى نيويورك ، وبذلك خرق قانون المتحضرين وعوقب من ثم. ومنذ البداية كان من الواضح أن ناتى بامبو له ماض ، لكنه ماض نبيل زاخر بالمغامرات مع الهنود فى الأحراج البرية وبالاشتراك فى الحرب الفرنسية والهندية بعد الثورة ، وهكذا وضع كوبر شخصيته الرئيسة

فى مرحلة ما بعد انتصاف العمر مباشرة . بهذا بدأ ملحمته بأسلوب كلاسيكى من قمة الأحداث التى واكبت النصف الأخير من عمر بطله .

وكان الجزء الثانى « آخر الموهيكان » (١٨٢٦) عوداً إلى الماضى لتصوير ناتى فى عنفوان حياته وفى قمة ماضيه المجيد .

أما « البرارى » فقد كتبت فوراً فى أعقاب الجزء السابق وتوحى بأن كوبر كان على عجل فى وضع خاتمة لأوديسة هذا الخشاب الذى ابتكره « والبرارى » بوضوح خاتمة أو ستار المنظر العظيم الذى ينهى أحداث « ليذرستوكنج » ، فقد أصبح البطل رجلا عجوزاً جاوز الثمانين ، وينتظر الموت بمنتهى الوقار بين أحضان الطبيعة وبعيداً عن ذراعى الحضارة ، من تلك النقطة التى حددت مرحلة ما بعد انتصاف عمر بطله مباشرة استطاع كوبر أن يلقى الأضواء على ماضى بطله ومستقبله . وكان من خلال قصة « ليذر ستوكنج » قد سرد ملحمة كشف حدود أمريكا .

وكان النقاد قد شغلوا أنفسهم من قبل بالاعتذار عن أسلوبه الجاف الخشن فى السرد ، لكنهم بهذا لم يدركوا المهارة والأصالة اللتين بنيت عليهما الثلاثية . إننا نجد فوق الأجزاء الثلاثة سحابة من القدرية المصيرية أو الموت الحتمى مع تغير الزمن بكل ما يجلبه من حزن لا مهرب منه ونغمة لا تحمل فى باطنها سوى الرثاء . فقد ذبح الغزال فى الكتاب الأول لكن الأسوأ من ذلك أنه اعتبر من الممتلكات التى يحرمها القانون . ثم يتوالى قطع الأشجار وتبدأ الغابة فى الاختفاء السريع . ويحاكم قاتل الغزال الجبار ويحكم عليه نتيجة لاتهامه بالاغتصاب دون وجه حق وهى جريمة من الجرائم المذلة . من هنا يعانى الموت الروحى على يدى القاضى تمبل ممثل الحضارة فى القصة . وكانت حياة ليذرستوكنج مجرد ماضٍ تماماً مثل البرية التى عشقها كثيراً . ونستطيع أن نترك هذه القضية للنقاد من أتباع فرويد لكى يقرروا هل كان القاضى تمبل قد قصد به أن يكون (أبا كوبر) شخصيا ؟ فإذا كانت الحال هكذا فهى رواية التمرد العاطفى ؛ كما أنها رواية النقد الاجتماعى .

وتمثل « آخر الموهيكان » قصة ليذر ستوكنج فى عنفوان حياته ؛ كما تسرد أيضا قصة الموت القادم مع الزمن ، وبذلك تحافظ على النغمة إذا لم تكن حافظت على الخط الفكرى الذى بدأ مع الكتاب الأول . وبالطبع فإن الضحية هذه المرة هو أنكاس النبيل آخر فرد متبق من قبيلته التى أبادتها جماعات نيوانجلاند الشريرة قبل ذلك بسنوات .

هكذا ندرك حلقات المصير المتتابعة : الهندى أولا ثم الغابات وبعد ذلك الصياد . وتأتى

« البرارى » لتشكل الحلقة الأخيرة فى هذا التتابع المخيف ! إنها رواية تدور أساساً حول الموت ، ولكن لحفظ التوازن بما فيه الكفاية فإنها تدور حول الموت والبعث ، فهى تنتهى بتلك الملاحظة الغامضة المرتبطة بعيد الفصح أو عيد القيامة ، وهى ملاحظة تجمع ما بين الحزن والأمل . إنها تؤرخ لموت أسلوب للحياة ومولد أسلوب آخر ليس سيئا فى كل وجوهه !

فى تلك النقطة استطاع كوبر أن يبدع تحفة أدبية ذات بناء أصيل ، وكما قال د . هـ لورانس بلماحية ــ لكن ليس بإدراك كامل – أن كوبر بدأ عملية « الانسلاخ من الجلد القديم » [٢] وقد عاد إلى الوراء فى عامى ١٨٤٠ و ١٨٤١ ، وألف كتابين آخرين فى نطاق سلسلة ليذرستوكنج بعنوان « مكتشف الممر » و « ذابح الغزال » عاد فيهما ناتى بامبو إلى الوراء على مراحل متتابعة عبر رجولته المبكرة وصوب شبابه وبدايات حياته . هنا انكسرت شوكة الموت . وبمعنى آخر فقد تحقق بعث آخر ، وعاد ليذر ستوكنج مرة أخرى ليجوب الغابات والبحيرات ذات الوميض الزجاجى . وطبعاً هناك أماكن تدور فيها أحداث الكتابين ، وبالنسبة لحياة ناتى الطويلة جداً فإن الكتابين يوضحان للقارئ فى عصر الحتمية القدرية ، وزحف الإمبراطورية ماذا كانت عليه بالضبط البرية من مظاهر ومناظر تأسر الألباب ؟ كما أنهما أعادا إلى الأذهان الكشوف الرائدة التى قام بها جيل بطل سابق استطاع أن يبدأ مولد هذه البلاد ، وهى إنجازات كانت مهددة بالنسيان ما عدا ذكرها فى الخطب الرسمية لدانيال وبستر .

هناك شىء أساس فى روايات ليذرستوكنج الخمس لكوبر جعلها تتلقى أسمى آيات التقدير : فقد تسلمتها الأجيال التى قرأتها لمدة مائة عام تقريباً على أنها كتب للأطفال أساساً . واستطاعت هذه الكتب أن تحافظ على المستوى السحرى للقصة والشخصية عبر كل السنين التى فقد فيها الأمريكيون وعيهم بذاتهم عندما انهمكوا تماماً فى عملهم وفى النمو الصناعى وبناء المدن الضخمة فى البقاع التى شهدت الغابات والبيوت الخشبية ذات يوم . فقد استطاعت الروايات أن تظل مثيرة للاهتمام فى الوقت الذى اندثرت فيه روايات التسلية وغيرها من المئات التى قلدتها والتى ولدت نوعاً أدبيا جديداً تماماً عرف باسم « الويسترن » . أى الروايات التى تدور حول المغامرات فى الغرب الأمريكى . واستطاعت أيضاً أن تخلد حتى يومنا هذا فى عصر السينما والاستعراض الغنائى ، بل إنها تحدت أعظم الأفلام التى أخرجها جون فورد .

لكن منذ عام ١٩٥٠ على أقل تقدير ، وهو العام الذى صدرت فيه دراسة هنرى ناش

سميث « الأرض العذراء : الغرب الأمريكى كرمز وحلم » . بدأ نقاد الأدب ودارسو الثقافة فى إدراك المعنى الأشمل لإنجاز كوبر . ويقف كوبر الآن بل يبرز كأعظم روائى استطاع أن يبلور التحول الأمريكى ، وفى قلب عمله يكمن التضاد والتناقض الذى يعد محور التجربة الأمريكية التاريخية . ولم يستطع كوبر أن يقرر هل كان يفضل الطبيعة أو الحضارة مثله فى ذلك مثل كثير من الأمريكيين ؟ كانت الطبيعة فى نظرهم من صنع الله دون تدخل بشر . كانت الجمال والرحابة والسمو الساكن الذى فى الغابة والبحيرة والبرارى ، كانت بريئة ونبيلة وحرة ؛ كانت من المنابع الروحية والمادية العظيمة التى عرفتها أمريكا ، وفى الفترة الحرجة التى تميزت بالبحث عن الذات القومية استطاعت أن تبتعد بنا عن المجتمع الإقطاعى الطبقى الصناعى فى أوربا « المتحضرة » .

ومن ناحية أخرى كانت الطبيعة برية لا تعرف القانون ، ومركزاً للعنف والخطر والرعب .

وعلاوة على هذا كله فإنها وقفت فى سبيل التقدم . ومراراً وتكراراً فى قصص ليذرستوكنج بلور كوبر التناقض بين الطبيعة من خلال تجميد عنصر الزمن وتثبيته والتقدم من خلال موجة المستقبل التى لا تهدأ والتى تقدم إغراءاتها بطرق عدة . وتمثلت المشكلة فى كيفية ترويض الطبيعة وإخضاعها لسيطرة الإنسان من أجل مصلحته بدون إهدار مزاياها وتحويلها إلى الحضارة المتخمة الجافة الأوربية . هذه كانت مهمة أمريكا أن تخلق مجتمعاً جديدا يمتاز بالكفاية والنظام والتحضر لكنه قائم أساساً على قوانين الطبيعة الخيرة ، ومن هنا كان انطلاقه الحر . هكذا كان كوبر مثل معظم الأمريكيين ، فهو مع اهتمامه الدائم بالطبيعة فى مواجهة دوامة التقدم يريد العنصرين بطريقة ما .

وفى كتبه احتفى بكل من الطبيعة والحضارة ، وأشاد بهما من خلال التوازى المستمر بين الزمن والتقدم . وقد استطاعت ملحمة ليذرستوكنج أن تبلور هذا المفهوم بأساليب يقترب من الكمال على أساس أنها أسطورة أو قصة الريادة البطولية التى تؤرخ لبداية تكوين الشخصية التاريخية للشعب الأمريكى . وقد أدرك كوبر ما يبدو أن بعض علماء الاجتماع قد نسوه الآن وهو أن كلتا الشخصية الفردية والشخصيات الجماعية لا تستمدان مقوماتهما إلا من التاريخ . وقد تمثل إنجازه العظيم فى تجسيد عملية التحول التاريخى فى فترة التكوين الثقافى الذى لا يرتبط إلى حد ما بحركة الزمن فيبدو ثابتاً فى حين أنه يركز الأضواء على الخصائص الغامضة المتقلبة والشاذة لثقافة مازالت فى مرحلة المخاض الزاخرة بعمليات التحول التى لم يعرف لها مثيلا فى

سرعتها من قبل . وبسبب حساسيته الزائدة تجاه حركة التاريخ التى تركزت فى حركة كشف الحدود فمن الطبيعى أن يجد كوبر فى تسجيل وسرد دكتور إدوين جيمس لامتداد الحضارة التى تكاد تطغى على البرارى جاذبية لا تقاوم !

وبحكم أن « البرارى » تمثل الفصل الأخير فى هذه الدراما العظيمة ، فقد تجمعت معظم شخصيات كوبر الرمزية على المسرح فى بانوراما أعظم وأشمل مما نجده فى أى كتاب آخر له . وتذكرنا نغمة الكتاب وكثير من شخصياته مسرحية الوداع لشكسبير « العاصفة » . لم يكن هناك أدنى شك فى أن هذا الكتاب سيكون الخاتمة . وكانت الخلفية الوصفية – على الرغم من مارك توين [٣] – خلفية حقيقية مستمدة من وصف جيمس الدقيق ، لكن كوبر استخدمها بأسلوب عجيب وماهر . إنها « بقعة كئيبة (وحيدة) منعزلة » ذات « عشب ميت جاف » ولا تمنح سوى القليل « الذى لا يرضى سوى آمال المستوطن العادى فى الأراضى الجديدة » . وقد لونتها « ظلال الخريف وأطيافه » ، موحية بتقدم العمر ، فى حين أن الصخرة الضخمة الحصينة تنهض لتحمى عائلة بوش ولتبدو فى برارى الخريف كشاهد قبر .

وبعد أن تقدم العمر بليذرستوكنج وغطت التجاعيد وجهه – يظهر فجأة فى البرارى وخلفه الشمس الغاربة التى تطمس ملامحه ولا يبدو منه سوى الإطار الخارجى لجسمه . إنه ابن الطبيعة الذى يوحى بالرعب عندما أوشك أن يختفى من على سطح الأرض .

« لقد هبطت الشمس خلف سطح أقرب موجة من موجات البرارى تاركة فى اتجاهها الشريط المتوهج الغنى بكل الألوان . وفى منتصف هذا الفيض من الضوء النارى ظهر شبح إنسان ارتسم أمام الخلفية الذهبية بتحديد ووضوح ، كما لو كان فى متناول أى يد تمتد للإمساك به ! كان الشبح هائلا ، والمنظر موحياً بالشعر والحزن ، وكان الموقف متركزاً مباشرة فى طريق الراحلين . لكن بسبب امتزاجه بتلك الخلفية ذات الأضواء المبهرة – كان من المستحيل تمييز نسب جسمه أو شخصيته الحقيقية .

كان تأثير مشهد مثل هذا تأثيراً فورياً قوياً . جاء الرجل لكى يقف أمام المهاجرين ، وظل يحملق فى شىء غامض غريب باهتمام كئيب انقلب فى الحال إلى رعب خرافى . » .

وبطول الكتاب كله ظلت هذه الخاصية التى يتميز بها ليذرستوكنج والتى تقترب به من الآلهة بارزة فى كل تضاعيفه . وكانت حكمته التى أكدت نفسها باستمرار أمام القارئ وفى مواجهة الشخصيات الأخرى فى القصة نتيجة لعمره الطويل وخبرته العظيمة وإذا كانت قواه

لم تعد جسدية بعد (حتى « عين الصقر » التى اشتهر بها أوشكت أن تكل) ، فإنه مازال يستمدها من إدراكه الحدسى العميق للطبيعة والبشر. وكانت هذه القوى من التأثير بمكان بحيث إنه ترك بصماته الواضحة العريضة على أفعال كل الشخصيات الأخرى فى القصة وخاصة فيما يتعلق بالقضايا التى تحتاج إلى ذكاء وخلق .

وأهم من هذه القوى على أية حال تبدو قيمه التى تمثل فى أسطورة كوبر بدايات أمريكا . ويتمثل المفتاحان التوءمان لقيم ليذرستوكنج فى الحرية وتبجيل الطبيعة . فعندما قبض عليه القاضى تمبل بسبب استخدامه الحر لمملكة الطبيعة بقتله غزالا – فإنه يرفض « قانون تنظيم الأرض الخلاء » فى معظم وجوهه ، ويفضل بدلا منه حرية قوانين الطبيعة حتى كما يطبقها الهنود الذين يتصرفون بمنتهى الحرية فى خيول المستوطنين ؛ لأنهم بحكم أنهم مخلوقات طبيعية فليس لديهم سوى شعور أو حاجة يسيرة إلى الملكية الخاصة .

وعلى أية حال فإن ليذر ستوكنج لا يخرق الطبيعة أو قوانينها ، بل إنه يجسد التضاد الأساسى فى كتاب كوبر عندما يمتنع عن احتقار قوانين الحضارة احتقاراً كلياً . فعندما يتحدث إلى إيلين ويد فإنه يعلن : « أن القانون شىء سيئ فى حياتنا ، لكننى أفكر أحياناً فى أن حياتنا يمكن أن تكون أسوأ بدونه تماماً. لقد بلغت بى السن والضعف مبلغاً جعلنى أحس بمثل هذا الضعف أحياناً . نعم . نعم ، نحن فى حاجة إلى القانون طالما أننا لا نملك موهبة رعاية القوة والحكمة فى آن واحد ! » .

هنا يصل كوبر إلى محور خطه الفكرى وهو الخط الذى ساد كل الروايات التى اتخذت من مغامرات الغرب مضموناً لها حتى يومنا هذا . هذا هو دور القانون والنظام الذى يواكب أفضل خصائص الحضارة التى توفر العدالة والحماية للضعيف ضد الشرير والعنيف والمتكالب على المال ، باختصار ضد المفسد الذى يعتبر فى مفهوم كوبر رجلا غير طبيعى .

إن القانون الخير هو قانون جيفرسون الذى لا يحتاج إلى جدل فى تناغمه مع الطبيعة ، فهو بطبيعة الأمر مستمد منها ، لكنه على الرغم من ذلك يتيح الحرية للإنسان بقدر الإمكان وفى الحدود التى لا تسمح بالتعدى على البشر الآخرين ، إنه يعتمد أساساً على التسامح والاحترام المتبادل .

ويفتقر إشمائيل بوش إلى هذه الصفات بدرجة محزنة بحكم أنه يعتبر الشخصية الرئيسة فى القصة . إن بوش متوحش قاس قتل رجلا فى نزاع على الأرض ، وهو بهذا يعود بالحضارة إلى

مرحلة التوحش . وعندما يجمع بوش صغار جماعته حوله كما لو كان قائد قبيلة – فإنه يبدأ فى عبور البرارى المحرمة لكى يصل إلى أبعد نقطة ممكنة عن قيود القانون الذى لا يكن له سوى الاحتقار : والدليل على ذلك أنه أضاف الاختطاف إلى جرائمه الأخرى . وبالاشتراك مع زوج أخته الشرير آبيرام وايت يقوم باختطاف إينيز دى سيرتافالوس والتغرير بها ، وهى ابنة النبيل الإسبانى المشرف على المستعمرة والذى يملك ثروة كبيرة على الرغم من تدهور وضعه الاجتماعى ! وكان بوش ووايت يتوقعان الحصول على فدية فى مقابل إينيز التى احتجزوها فى البرية خارجاً .

فى هذه النقطة ربما ينخدع القارئ من جراء هذه الهفوة الجغرافية فى قصة كوبر ، فطالما أن الجماعة المهاجرة كانت تشق طريقها عبر البرارى أى بالقرب من الشريط الإسبانى من سانتافى إلى سانت لويس – فإنهم طبقا لمنطق كوبر ومن ثم منطق جيمس – كانوا فى موقع يمكنهم منه الاتصال بالسلطات الإسبانية بشأن مسألة الفدية . فقد أهمل كوبر ذكر مواقع المراقبة الإسبانية المتناثرة بطول الطريق مثل تلك التى بالقرب من قاعدة المناطق الصخرية الجنوبية ، وعلى ضفاف النهر الأحمر بين أوكلاهوما وتكساس ، ومعسكرات التجارة بطول نهر بلات تماماً مثل المعسكرات المؤقتة – لقبائل الكومانشيروس التى تمارس عملياتها العسكرية فى سانتافى .

ولم يكن دور بوش المهم على أية حال بدور المختطف . فهو إشمائيل طريد العدالة الهائم على وجهه والخارج على القانون . إنه كاليبان آخر من نوع غجرى ذى قوة وحشية خارجة ومقدر له أن يعانى فى كهفه الخاص به سجيناً لجهله إلى أن يتعلم . نراه فى أول الأمر مخترقاً البرارى فى واحدة من أفضل فقرات كوبر الوصفية :

« كان رجلا طويل القامة ، لوحت الشمس محياه . جاوز منتصف العمر ؛ ملامحه كئيبة وسلوكه ليس له ضابط . وتبدو هيئته بلا شكل محدد بل يمكن أن تتخذ لنفسها أى شكل . لكنها كانت ضخمة وفى الواقع ذات قوة مذهلة . وكان فى بعض اللحظات فقط يبدو كسولا وفاقداً للحيوية عندما تفرض عقبة ما بسيطة نفسها على تحركه المتسكع ، عندئذ فقط يسير كبقية الخلق ، ومع ذلك فلابد أن يستعرض واحدة من الطاقات الكامنة داخله دون أن يبدو لها أثر فعلى ، مثل قوة الفيل الرهيبة التى يتركها بلا استخدام لكى تنام بعمق » .

ومع استخدام كوبر لمنهج دراسة الشخصية من خلال وصف شكل الجمجمة ، وهو المنهج

الذى ساد عصره – فإنه يضيف قوله : « كانت الخطوط السفلى لملامحه خشنة وممتدة وخاوية الوفاض ، فى حين أن الخطوط العليا أو تلك التى تمثل الأجزاء النبيلة فى الشخصية ويعتقد أنها تشكل كيانها الفكرى – كانت هابطة ومنحطة ووضيعة عنده . كان يرتدى زى الغجر محملا إلى حد العبث بالغنائم والأسلاب التى أتاحتها له الحضارة الكريهة : شال حريرى ، وسكينة بمقبض من الفضة ، وقبعة من الفراء الغالى ، وعملات مكسيكية مستعملة كأزرار للملابس ، وثلاث ساعات للجيب معلقة حول رقبته ، وغدارة ذات مخزن من خشب الماهجونى ومحلاة بالمعدن الثمين . وكان يحمل الرمز البدائى للشر : فأس المفسد . وهو يشبه لينى فى رواية ستاينبك « عن الفئران والرجال » . فهو جاهل تتملكه رغبة رهيبة وجامحة للتدمير لا يستطيع التحكم فيها من خلال مواجهتها . إنه يمثل البوتقة الأمريكية العظمى التى تنصهر فيها كل العناصر البربرية . وكان بوش فى المفهوم الأرستقراطى لكوبر غير متحمس على الإطلاق لحالة التدهور التى أصابت الطبيعة .

وعلى أية حال فإن قصة كوبر تدور فعلا حول الأسلوب الذى تعلم به إشمائيل بوش كيف يقيم الحضارة ؟ وكيف خلص بنفسه ونهض من وحشيته من أجل الحصول على الحكمة والصحة النفسية والنضج ؟ وكيف عندما خرج إلى الطبيعة استبدل دور كاليبان بدور بروسبيرو الذى صحح كل الأوضاع فى نهاية الأمر فى مسرحية « العاصفة » لشكسبير . ؟ لذلك فإن « البرارى » هى قصة بوش إلى حد كبير على الرغم من أنها تعد للمرة الثانية مقياساً لمفهوم التناقض عند كوبر متمثلا فى اضطرار بوش إلى التنافس بطول القصة مع ليذرستوكنج ، وجاذباً بذلك انتباه القارئ إليه ؛ لأن كوبر لا يستطيع فى النهاية أن يحسم فكره فيما يختص بقضية الطبيعة فى مواجهة الحضارة . ولعل هناك دلالة فى أن بوش وبول هوفر صائد النحل من الجيل التالى ظهرا بصفتهما من خلفاء ليذر ستوكنج فى الوصول بأمريكا إلى مرحلة النضج بكل ماتحمله من إيحاءات حزينة ومسرفة فى العاطفة كانت نتيجة طبيعية للظروف التى واكبتها .

وبالرغم من الانحناءات والالتواءات التى أصيبت بها حبكة الرواية فإن الخط الذى سار فيه تعليم بوش كان بسيطاً نسبيا . وكان أحد أبنائه ذو البنية الضخمة والغباء – قد قتل بطريقة غامضة ، فإذ ببوش ينهال بالاتهامات والغضب الذى عرفت به القبائل الهائمة فى العهد القديم بحيث يعتقد فى أول الأمر أنها فعلة الهنود ! ثم ينهال باتهاماته على ليذرستوكنج الفقير الطيب ! وعلى أية حال فإنه يعرف أخيراً أن القاتل كان آبيرام وايت زوج شقيقته – وطالما أنه ليس هناك

قانون فى البرية (التى يقول بعض إنها غرب البيكوس) – فقد اضطر إلى إقامة محكمته الخاصة به ، وعقد المحاكمة ، وإعلان الاتهام والإدانة ثم شنق آبيرام وايت . كانت نتيجة هذه التجربة أن تاب رئيس القبيلة عن أساليبه الشريرة الخاصة به ، وأدرك قيمة القانون ، وأن الحضارة قد جاءت أخيراً إلى البرارى . فنراه أخيراً مسئولا عن تطبيق العدالة ، فيطلق سراح إينيز ، ويقدم يد ربيبته أيلين إلى بول هوفر ، ويحرر كابتن ميدلتون ، ويصل إلى اتفاقات محددة مع الهنود ، وبصفة عامة فإنه يتصالح هو والحضارة .

ويشكل الهنود قصة مضادة لتلك التى مثلها إشمائيل بوش : فعلى الرغم من أن كلا الباوني والسايوكس محاربون أشداء لا يشق لهم غبار فقد التزموا بمبادئ الشرف والعدالة . وقد تمثل هذا فى رمز ممر الأسلحة الدرامى بين الجيشين الهنديين والذى يشبه إلى حد كبير صراع الفروسية بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين فى رواية وولتر سكوت « التعويذة » . ويذهب كوبر إلى آماد أبعد من هذا ، آماد يصفها بعض بالعبث ، لكى يؤكد كيف أن التصاق الهندى بالطبيعة وتمكنه الغريزى من أساليبها جعله أفضل ساكن على الإطلاق للبرارى العظيمة التى لا يمتلكها أى إنسان ! إنه يكرر فى مرات عدة فى الكتاب الخاتمة التى وصل إليها دكتورجيمس والتى تحتم على الصحراء الأمريكية العظمى أن تكون حاجزاً دائماً وصحيحاً فى وجه التوسع الأمريكى ! إنها يجب أن تترك لرجال الطبيعة النبلاء المتوحشين الأحرار ، لكنهم فى الوقت نفسه الرجال الحمر الشرفاء الذين يختارهم ليذرستوكنج لقضاء أيام الشيخوخة المتبقية له . لكن مع الأسف فإن القارئ يدرك بحزن أن ليذرستوكنج وأصدقاءه الهنود قد حكم عليهم – مثله فى ذلك مثل آنكاس آخر الموهيكان – بالاندثار قبل زحف الإمبراطورية بصرف النظر عن نوعية هذه الإمبراطورية وعن احتمال أنها تمثل الخير العام .

وتستحق الشخصيات الأربع التى هى أكثر شباباً فى القصة اهتماماً أكثر من هذا . تُمثِّل إينيز دى سيرتا فالوس وأبوها الإسبانى الناعس – فى الواقع – أوربا المندثرة ذات الحضارة الاستعمارية الواهنة فى أمريكا .

أما كابتن ميدلتون فهو متفجر بحماس الشباب الذى يصل إلى حدود الهستيريا ، وعلى الرغم من ذلك يمثل الأرستقراطية الشجاعة والروح العسكرية للطبقة العليا ؛ مما جعله صديقاً مناسباً لإينيز سليلة المجتمع الراقى ؛ كما نجد فى كتاب كوبر الأزرق .

أما أيلين ويد وبول هوفر فيمثلان الجيل الصاعد للطبقة المتوسطة الفتية : إن أيلين اليتيمة

الصغيرة فتاة تعمل فى إحدى جماعات الكشافة ، وهى مزيج من تيس تروهارت ودوريس داى ؛ تتميز بالشجاعة وتعشق النظافة وتثير الاحترام ، لكنها فى الوقت نفسه تمارس ألاعيبها النسائية على صائد النحل الساذج الذى يتبعها حتى منتصف الطريق عبر القارة ، وليس فى عقله سوى هدف يكتنفه الغموض . وبالطبع فإن بول هوفر يجد فى هذا سعادة . فهو يفوز بمحبوبته أيلين فى النهاية ، وينجح فى عمله كصائد للنحل ، وأفضل من هذا كله أنه يمثل خليفة ليذر ستوكنج على وجه التحديد . إنه يستخدم السحر الذى تملكه يداه . وعلى أية حال فإنه فيما يختص بهذه النقطة الأخيرة فإن كوبر يفشل إلى حد ما فى إقناعنا : فقد تركنا لكى نتساءل فى دهشة عن احتمال أن بول هوفر يمثل خلفاً حقيقياً فى حمل الرسالة ، وخاصة أن كوبر لم يكمل قصته بصفته « ابناً حقيقياً » لليذر ستوكنج إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير . هذا لأن قصته توقفت فى عام ١٨٤٠ وعاد كوبر أدراجه إلى الرجولة المبكرة لناتى بامبو نفسه . وبالإضافة إلى ذلك فإنه فى رواية « مكتشف الممر » ابتكر كوبر شخصية مشابهة مازالت عاجزة عن إقناعنا بقيامها بعمل التمثيل النيابى ؛ إنها شخصية البحار الشاب جاسبر ويسترن . ويبدو أن كوبر الأرستقراطى لم يستطع حقاً أن يتعاطف هو والطبقة المتوسطة !

وبالإضافة إلى معظم الشخصيات التى تهمنا فهناك شخصية دكتور أوبد بات التى تثير السخرية كلما قابلناها . ومن الواضح أن هذا الطبيب الطيب محاولة من كوبر لكى يبتكر إحدى شخصيات شكسبير غير المحترمة أو الكوميدية فى قصته . إن دكتور بات قرين بعيد لكل من جاستس شالو وإينشانت بيستول وربما لدول تيرشيت بطريقة ما ، وهو بادعائه الكبير وافتقاره المستمر إلى الحكمة أو الإدراك السليم يشبه إلى حد بسيط فولستاف ، على الرغم من أن شخصية كوبر لا تصل إطلاقاً إلى مستوى مثل هذه الإنجازات الأدبية البارزة .

وعلى كل فإن دكتور بات يضيف بعداً هاماً إلى قصة كوبر ، وهو بعد لا يلتفت إليه أحد بصفة عامة . فعلى الأقل يعكس هذا الطبيب المؤمن بالطبيعة إيماناً غير عملى – رأى كوبر الشخصى تجاه تسجيل دكتور جيمس العلمى المسهب لمغامرة الميجور لونج ، وهذا احتمال قوى جداً ، يزخر تسجيل دكتور جيمس بمفاهيم وظيفية وعلمية عالية لاتحمل فى طياتها خاصية الذوق الأدبى المفروض توافرها فى القصة ، لذلك فهى تعد المثيل الحقيقى الواقعى لرغبة دكتور بات الملحة فى استخدام المصطلحات العلمية المعقدة فى كل مناسبة . من هنا يمكن وضع وصف دكتور جيمس للظواهر الغريبة ذات الأبعاد الكثيرة على مستوى سذاجة دكتور بات نفسه

عندما أخطأ فى أن يفرق بين الحمار والجاموسة دون أن ينسى ذكر الاصطلاح العلمى اللاتينى لكل منهما ! ولنضع فى اعتبارنا تلك الصورة المتجسدة العبثية التى يقدمها دكتور جيمس بمنتهى الرزانة العلمية كأحد المناظر التى تميز قرية « بات هارت » لقد سجل دكتور جيمس بحرص قوله :

« رأيت إحدى الأمهات التى من الواضح أنها تبلغ الثلاثين من عمرها ذات بنية عادية . تقوم بإرضاع طفلها الذى « وقف » على الأرض . لقد وجدت من الضرورى أن تنحنى قليلاً بحيث وقفت ترقبنا وقد انتصبت قامتها تقريباً على حين كان الطفل الذى يبلغ حوالى العامين من عمره يمارس رعاية نفسه » لكن دكتور بات لم يقصد به فقط أن يكون شخصاً مثيراً للدعابة فقط ، أو ببساطة أداة لتوصيل فقدان كوبر لصبره . إنه يجسد أيضاً رأى كوبر فى العلم ومدى صحة النظرة العلمية المجردة تجاه الطبيعة فى مواجهة نظرة ليذر ستوكنج القائمة على الإدراك الحدسى أو الغريزى السليم . لقد انشغلت الهيئة المصاحبة للميجور لونج بقياس قمة بايكس عن ملاحظة روعتها الأخاذة . ولقد أخطأ دكتور بات فى الاتجاه نفسه عندما يقول :

« لقد أقمت قاعدتى بنفسى ، وحددت طول الزاوية بالحساب ، ولكى أرسم ضلع المثلث الموازى للزاوية فإن هذه العملية لا تعنى سوى أننى أقوم بتحديد الزاوية » هذا ما قاله دكتور بات المشغول جدًّا عند وصفه للكيفية التى أنقذ بها بعد أن تاه بعيداً عن المعسكر ثم أضاف :

« كنت أعتقد أن المدافع أطلقت من أجلى ، لذلك غيرت خط سيرى بناء على اتجاه الأصوات . لم أفعل هذا لاعتقادى أن الحواس أكثر دقة أو حتى فى دقة الحساب الرياضى ، لكننى خشيت أن يكون هناك بعض الأطفال الذين قد يحتاجون إلى خدماتى ! »

يرى دكتور بات الطبيعة فى معناها المجرد فقط : فهو يقوم بجمع الملاحظات ثم ينظمها ويصنفها ، أما الطبيعة الحقيقية فلا يعرفها ومن ثم فهو وافد جديد لا حول له ولا قوة ، ولا يعرف أين يطأ بقدميه ؟ وهى الحقيقة التى يحاول تجاهلها باستمرار ! إنه لا يتعلم لدرجة أنه يعجز عن إدراك معنى الحياة ذاتها ! ويعد فى نظر كوبر أكثر الشخصيات جهلاً ، بل إن حالته لا شفاء له منها ؛ مما أدى إلى فشل المحاولة التى قام بها إشمائيل بوش من أجله . ومن الواضح أن كوبر الفنان والرومانسى احتقر عالم العلم والمنطق المجرد . ومنذ عام ١٨٢٧ – أى منذ تلك المرحلة المبكرة – ظلت « الثقافتان » فى حالة من التعارض المطلق فى البرارى اللانهائية كما ارتسمت فى مخيلة كوبر !

إن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة من خلال العلم ، لكنه يستطيع أن يقوم بهذه المهمة بأعمق معانيها من خلال التاريخ والخيال الأدبى والرومانسية والأسطورة.وعلى الرغم من أن ليذرستوكنج ذوى وذاب مع غروب الشمس ، وفى الزهرة الذابلة ، والذئب الذى فقد أسنانه ، وفى كل الأشياء – فإن كوبر لم يستطع أن ينساه على الإطلاق– لقد كان جزءاً لا يتجزأ من التجربة الأساس التى مر بها كوبر على المستوى الشخصى أو التى مرت بها أمريكا على المستوى المتغير دوماً . إنه يعيش حتى يومنا هذا ، إنه خارج الزمان وخارج المكان وخارج مسار التجربة العادية الواقعية ، ربما فى المملكة التى يسميها ج . ر . ر . تولكاين «مملكة الأطياف» ، لذلك يبدو شخصية تاريخية تملك من الصدق ما يزيد على التاريخ نفسه . ومهما كانت الأخطاء الأدبية التى ارتكبها فينيمور كوبر فإنه لم يفتقر إلى عمق البصيرة أو شمولية النظرة أو النضج أو الخيال أو العبقرية .

ملاحظات

١ – أنسب طبعة لتسجيل دكتور جيمس الوصفى – فى المجلدات من رقم ١٤ إلى ١٧ من السلسلة التى أصدرها روبين جولد ثواتيس بعنوان «رحلات الغرب المبكرة» (كليفلاند ، ١٩٠٥) إنها إعادة طبع للطبعة التى نشرتها دور لونجمان وهيرست وأورم وبراون فى لندن عام ١٨٢٣ ، والتى نشرها أيضاً فى فيلادلفيا كل من هـ . س . كارى و ا . لى

٢ – انظر د . هـ لورانس «دراسات فى الأدب الأمريكى الكلاسيكى» (نيويورك ، ١٩٦٦) ص – ٥٣

٣ – هذه الإشارة وكذلك الإشارة التى فى الجملة الختامية من هذه المقالة إلى مقالة مارك توين «أخطاء أو سيئات فينيمور كوبر الأدبية» (نيويورك ، ١٨٩٧) ص ص ٧٨ – ٩٦ فى كتابه «كيف تقص قصة ومقالات أخرى ؟» فى هذه المقالة يهاجم مارك توين كوبر من خلال التفاصيل الدقيقة لعجزه عن الالتصاق سواء بالطبيعة أو بالسلوك الإنسانى أو باللغة !